المحاضرة الثالثة: **الاستشراق وتاريخ الأدب العربي**

تمهيد

نتناول في هذه المحاضرة، البدايات الأولى لتاريخ الأدب العربي لاسيما عند المستشرقين، مع حفر يسير عن خلفيات هذ الاهتمام المعرفي الأوربي بتواريخ الأدب، وعن المآرب التي كانت مرجوة في الشرق، من قبل الغرب. ولئن كان تاريخ الأدب عبر عديد القرون الماضية هو الحقل الذي مثّل أكثر من غيره التقاء الروافد المعرفية الانسانية حوله، فإن بروزه كحاجة وطنية وتعليمية لم يتحقق إلا مع بداية النهضة بفضل جرأة وحرص الكتاب الذين اقتحموا مجاله رغم عدم إلمامهم بالجوانب المنهجية الخاصة به.

تذهب عديد الدراسات إلى أن البدايات الأولى/ الجنينية، لتاريخ الأدب الحديث كانت على يد العجم في تأريخهم لآداب بلدانهم، ومنها فرنسا وبريطانيا وألمانيا. حيث كان كل كيان ضمن الثقافة الأوربية، يسارع للحفر في آداب بلده، متباهيا بذلك على بقية الكيانات الأوربية الأخرى.

وإذا كان روبير إسكاربيت قد رأى أن ميلاد هذه الممارسة بشكل عام لا يكاد يرجع إلى أبعد من مائتي سنة[1]، فإن ممارسة "تاريخ الأدب الحديث" ، لا تعدو أن تتجاوز القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي كانت له خصوصيات ثقافية ومعرفية–فيما أبان البحث سابقا–، سواء أعند العرب أم في أوربا. وقد أبان البحث في هذا الفصل أن عملية تنظيم العلوم طالت كل المجالات المعرفية، بما في ذلك المجال الأدبي .

و في إطار صراع غير معلن بين أهم الدول الأوربية آنذاك؛ فرنسا، ألمانيا، وبريطانيا، وفي ظل تنافس محموم بين هذه الأخيرة، حاولت "كل دولة أوربية أن تبني تاريخ مجدها وإبداعها

---

[1] ينظر: طاهر حجّار، الأنواع الأدبية، طلاس للدراسات والنشر، دمشق، د،ت،ط. ص 67.

الفكري والفني و الأدبي"[1]. وهذا كله بدافع تنظيم ذاتها وضبط معالم هويتها، قبل خروجها لربوع الشرق غازية ومستكشفة ومنمذجة لآثار وآداب وتراث هذا الشرق. بل يذهب الباحث أحمد بوحسن إلى أبعد من ذلك فيقول: "وحتى تتمكن من التحكم في حاضره (أي الشرق) ومستقبله، لا بد من ضبط ماضيه المعرفي والأدبي، وتنظيم تراكمه الحضاري في النهاية، وسيقرأ الفكر الأوربي ذلك التراكم الأدبي من المنظور الذي نظّم به عالمه المعرفي وفقا لتوقعاته وانتظاراته منه، حتى يضمن التحكم في ضمان كينونته وينفذ إليها أكثر، فيُبْرزَ فيها ما يشاء ويختزلَ ما يشاء. كان يتصرف في ذلك بأدواته الإجرائية والمفهومية والمنهجية والنظرية والعلمية التي توفّرت لديه بشكل متقدم خلال القرن التاسع عشر"[2].

ولذلك حينما يطَّلِع القارئ على كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان*، يجده قد ذكر عددا كبيرا من مؤلفات الأوربيّين في مقدمة كتابه، على رأسهم يوسف هامر يورجشتال*VonHammer-purgstall* (1774-1856)،الذي ألف كتابا في تاريخ الأدب العربي في سبعة أجزاء، ونشره سنة 1850 رغم أن أهم مصادر تاريخ الأدب لم تكن قد شاعت في زمانه. ويذهب بروكلمان إلى أنه على الرغم من ضخامة كتاب يوسف هامر يورجشتال، إلا أنه لا يمكن الانتفاع من كتابه إلا بحذر شديد[3]. والحكم نفسه يبديه بروكلمان مع كتاب أربتنوت*Arbuthnot* الذي صدر سنة 1890. ثم يُشيد بروكلمان بكتاب صُنّف بين الكتابيْن السالفيْن لـ ألفريد فون كريمر*Von Kremer* (18828-1889) في كتابه "تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء" نشره سنة 1877 في فينا، وكان له أثر قوي في توجيه بروكلمان وتنوير جوانب الموضوع الذي تعرّض له، ثم يأتي كتاب بروكلمان، في طبعته الأولى بجزأيْن، صدر سنة 1898 في مدينة فايمر بألمانيا."على أنه ينبغي ملاحظة أنه كان قد ظهر في مصر قبل بروكلمان أيضا

---

[1]أحمد بوحسن، العرب وتاريخ الأدب، نموذج (كتاب الأغاني)، دار توبقال للنشر، ط1، 2003، ص 116.

[2]أحمد بوحسن، العرب وتاريخ الأدب، ص 117.

*إعتمدت المحاضرة على الطبعة الخامسة التي نقلها للعربية عبد الحليم النجار، دار المعارف.

[3]كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف،مصر، الطبعة الخامسة،ص 32.

كتاب في تاريخ العرب وآدابهم، من تأليف إداورد فانديك وفيليبيدس قسطنطين طبع في بولاق سنة 1892، ولكنه كتاب تعليمي لا يقدم إلا نظرة عابرة في أدب العرب وثقافتهم، وإن تأثر فيما يبدو بالكتب الألمانية والإنجليزية السابقة عليه"[1].

ثم ذكر بروكلمان كتبا عديدة صدرت بعد صدور كتابه، منها كتاب كليمان هيارت*Clémant . Huart* الفرنسي (1854-1926) بعنوان:آداب العرب*LittératureArabe*، سنة 1902. ثم كتاب الإيطالي، بيتسي*PizziItalo*(1849-1920) سنة 1903، وقد استند هذان الكتابان على بروكلمان. ثم مصنفا لدى جويه *M.J.de Goeje*(1936-1909)، ألفه سنة 1906 ، ثم كتاب الأستاذ نيكلسون*R.Nicholson*(1868-1945) ألفه سنة 1907، ثم آدم متز *A.Mez*(1869-1917) بدراسته للعصر العباسي سنة 1922.

ثم راح بروكلمان يحصي عددا من المؤلفات* التي ظهرت بعد مؤلفه الأول، ذكر منها أربعة وعشرين مؤلفا، مؤكدا على مسألة تاريخية خطيرة، وهي أن عدد المؤلفات لا يُعدّ ولا يُحصى، وأنه لا يستطيع أن يسميها كلها، فذكر منها تاريخ آداب العرب لمصطفي صادق الرافعي (1880-1937) الذي طبع سنة1911، إلى أن وصل إلى كتاب تاريخ الأدب العربي في مصر من العهد الفاطمي إلى العصر الحاضر، لصاحبه محمد أمين النواوي، طُبع في مصر سنة 1938[2].

هي إذاً، مؤلفات كثيرة جدا، أقل ما يمكن أن تعكسه هذه الكثرة من المؤلفات في تاريخ الأدب العربي بتسميته الجديدة، القبول الذي حظي به هذا النوع من المؤلفات، بعد أن كانت غير مألوفة وغير معروفة لدى الدارسين والقرّاء، ويبدو أن الحركة النقدية والفلسفية التي شاعت خلال القرن التاسع عشر ساعدت على انتشار مثل هذا النوع من المؤلفات.كما اهتمت فئة

---

[1] كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، كلمة المترجم عبد الحليم النجار، أنظر المقدمة، ص (م).

*ذكرها في الطبعة المنقحة والمصححة التي صدرت سنة 1943 و1949، أنظر مقدمة المترجم، ص ((م)).

[2] كارل برولكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ص35،34،33.

معيّنة من العجم الباحثين بهذا النوع من التأليف لحاجة في نفسها، هي فئة (المستشرقين)، وقد ذكر بروكلمان بعضهم وعفا عن آخرين، وكان هو على رأسهم.

لقد شارك المستشرقون منذ القرن التاسع عشر في وضع خريطة هذه المصنفات الجديدة، فألفوا فيها بلغاتهم الأوربية الأصلية، إن الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية، وكان ذلك يدخل في إطار تعاطيهم الشامل مع التراث العربي، تحقيقا، وتنقيحا، وتأريخا وقراءة، ثم تصنيفا. "وأول ما يُلاحظ في تصوراتهم للأدب وكتاباتهم عنه، أنهم جاؤوا إليه بذلك الفكر التجريبي والتدقيقي الفقه لغوي، والتنظيمي والتراتبي الذي عرف به فكر القرن التاسع عشر في أوروبا، والذي طُبّق على تاريخ الأدب الأوربي نفسه، ذلك التصور هو وليد المناهج التاريخية والفقه لغوية والتجريبية والتطورية، التي كانت سائدة في الأوساط الأكاديمية عندهم"[1].

و قد تأتّى لهم كل ذلك بما توفر في بلدانهم من نفيس الآثار العربية والإسلامية، وبما أتقنوا من فنون اللسان العربي، الذي كان "معروفا معرفة جيّدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس"[2]. وبوعي حضاري، ودافع معرفي، ومآرب إيديولوجية، انطلق ثلة من الأوربيين يتعلمون -فضلا عن اللغة العربية- العديد من لغات ديار الإسلام كاللسان التركي، والفارسي، "لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتمادا مباشرا على الاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام، لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية"[3]. وبعدئذ خرجت بعثات رسمية وغير رسمية إلى الشرق، تجمع الكتبَ نفيسها و رخيصها، متوفرها ونادرها، وتحتك بالعلماء، والعامة من المثقفين، وتسجل كل شاردة و واردة عما يمتاز به هذا العالم الجديد القديم، الشرق، ثم تعود ولو بعد حين إلى ديارها/أوربا، وتعمل على "إمداد علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، واطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي

[1] أحمد بوحسن، انتقال النظريات والمفاهيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدرا البيضاء، ط1، 1999، ص 37.
[2] محمود محمّد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص47.
[3] المرجع نفسه، ص47.

تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها، وأيضا إطلاعِ رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام"[1]. و هكذا تمخضت عن هذه الجهود الجبارة فئة من أبناء أوربا عُرفوا باسم "المستشرقين، وهم أهم وأعظم طبقة تمخّضت عنها اليقظة الأوربية"[2]، وقد أفنوا أعمارهم خدمة في استصدار كنوز التراث العربي والإسلامي من مخابئها الطبيعية، "فلم يتركوا شيئا إلا خبروه وعجموه، وفتشوه وسبروه، و ذاقوه واستشفّوه، ومن هؤلاء وخبرتهم وتجربتهم خرجت أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية (طبقة المستشرقين) الكبار، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم رست دعائم الاستعمار ورسخت قواعد التبشير"[3]. وكانت النتيجة أن امتلكوا آلاف المخطوطات النفيسة، وعمدوا إلى نشرها كي تكون في متناول جميع المستشرقين، في بلدان أوربا، وكانوا لا يطبعون إلا العدد الذي يلبي حاجة مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكا، وما فضَل يُرسل إلى البلاد العربية[4]. ثم اهتموا بنشر مجلاّت علمية ينشرون فيها أبحاثهم، إلى أن تُوِّجت أعمالهم بنشر ما يسمى: (دائرة المعارف الإسلامية)،وهي موسوعة علمية عن المعارف الإسلامية. كما كانوا يكتبون لعوام الناس الطامعين في دعم استعمار بلدانهم الأوربية للبلاد العربية، الراغبين في الإفادة من هذا الشرق العربي الاسلامي النائم، وقد شعر المستشرقون بحاجة هؤلاء الطامعين فكتبوا "في القرآن، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته، وفي تفسير القرآن، وفي الفقه، وفي تفاصيل شرائع الإسلام، وفي تاريخ العرب والمسلمين، وفي الأدب، واللغة والشعر وفي الفنون والآثار، وفي علم البلدان (الجغرافيا)، وفي تراجم رجال الاسلام، وفي الفرق الإسلامية، وفي الفلسفة عند المسلمين، وفي علم الكلام...كتبوا وألّفوا وصنفوا، لكن لهدف واحد لا غير: هو تصوير الثقافة العربية الاسلامية وحضارة العرب والمسلمين، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف

---

[1] محمود محمّد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص48.

[2] المرجع نفسه، ص48.

[3] المرجع نفسه، ص53.

[4] المرجع نفسه، ص ص، 54، 55.

وبذل كلّ جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علميّ مألوف لكل مثقف أوربيّ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه، بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص"[1].

ولعل هذا ما يفسّر هذه الكثرة الكثيرة من كتب تاريخ الأدب العربي التي أُلِّفت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، إنها عناية خاصة أولاها المستشرقون بهذه المادة النفيسة والمؤثرة في مجال التربية والتعليم، بل وحتى السلوك. سارعوا إلى صنع النموذج الذي يظنونه الأفضل بالنسبة لأهدافهم ومآربهم البريئة أو غير البريئة. وكانت أوربا الطامعة في الشرق، استعمارا واستنزافا ومسخا، وراءهم وتدعمهم.

[1] محمود محمّد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص59.